

## زيارة القدس والرحلة إليها في تراث العلماء

د. أسامة جمعة الأشقر

الشوق إلى الشيء من آثار الأُنس به والإيمان بمكانته، وإذا غلب على المرء التَشَوُّقُ إلى الشيء رغب فيه، وإذا رغب فيه سعى إليه بالقرب منه أو الحضور إليه أو ذكره واستدعائه في حديثه الذي يطيب له، ويسامر به أخلاءه المقربين، وصفوته المنتجبين؛ وقد تعززت رغبة الزيارة للمسجد الأقصى في مرحلة مبكرة من تاريخ الإسلام، وقبل أن تدخل جغرافيته المكانية في السيادة السياسية بهذا الإعلان النبوي الشهير: ( لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَمَسْجِدِي )<sup>1</sup>؛ بل كان أمر هذا الاهتمام النبوي ببيت المقدس في مرحلة مبكرة من الدعوة الإسلامية، وتحديدًا في السنوات الأولى للبعثة النبوية في مكة بدليل ما رواه الطبراني والحاكم بإسنادهما عَنْ عُمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَرْقَمِ، عَنْ جَدِّهِ الْأَرْقَمِ، وَكَانَ بَدْرِيًّا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْى فِي دَارِهِ عِنْدَ الصَّفَا حَتَّى تَكَامَلُوا أَرْبَعِينَ رَجُلًا مُسْلِمِينَ، وَكَانَ آخِرَهُمْ إِسْلَامًا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَلَمَّا كَانُوا أَرْبَعِينَ خَرَجُوا إِلَى الْمَشْرِكَينَ، قَالَ الْأَرْقَمُ: فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُودِعَهُ، وَأَرَدْتُ الْخُرُوجَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيْنَ تُرِيدُ؟» قُلْتُ: بَيْتَ الْمَقْدِسِ، قَالَ: «وَمَا يُخْرِجُكَ إِلَيْهِ؟ أَفِي تِجَارَةٍ؟» قُلْتُ: لَا، وَلَكِنْ أُصَلِّي فِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلَاةٌ هَا هُنَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ تَمَّ»<sup>2</sup>، ولم يكن الاعتراض النبوي على المكان، وإنما على ترتيب المكانة، فمكة أشرف من القدس، والصلاة في مكة أعظم أجرًا من الصلاة في القدس في الأحوال العادية، كما أن حاجة الإسلام لكل أبنائه في تلك الحقبة الصعبة كانت تستلزم منهم الحضور والمشاركة في واجبات الدعوة وأولوياتها، وليس الابتعاد للبحث عن فضائل واهتمامات يمكن تعويضها وتأخيرها.

ولما تعرّف الخليفة عمر بن الخطاب أويّسًا القرني انطلق به عمر فأنزله عنده، وأكرمه، ثم كشف أويّس عن رغبته في التوجه إلى مكان دلّ عليه رسول الله، وأوصى بشد الرحال إليه، يقول أويّس أمير المؤمنين: ( قد حججتُ واعتمرْتُ وصليتُ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووددت أني صليت في المسجد الأقصى. يعني: بيت المقدس، فجهّزه عمر، وأحسن جهازه، ثم سار إلى بيت المقدس، فرزقه الله تعالى الصلاة بها، ثم رجع إلى الكوفة )<sup>3</sup>.

وقد تفررت فضيلة زيارة المسجد الأقصى لدى مذاهب الإسلام حتى قال النووي<sup>4</sup>: ( أجمع العلماء على استحباب زيارة المسجد الأقصى، والصلاة فيه وعلى فضله).

وقد كثرت الدعوات لزيارة المسجد الأقصى، وسارت بها الكلمات حتى إنه نُسِبَ للصحابي الجليل أنس بن مالك قوله: إن الجنة تحن شوقًا إلى بيت المقدس<sup>5</sup>.

ودعوة المرء لصاحبه أن يزور بيت المقدس تجد لها في كلام القدماء منزلة خاصة، حيث يجعل بعضهم ذلك من موجبات المغفرة، كما يزعم ذلك المفسر القديم مقاتل بن سليمان، يقول<sup>6</sup>: إن لقي الرجل الرجل، فقال: مُرَّ بِنَا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ! غُفِرَ لِلْقَائِلِ، وَالْمَقُولِ لَهُ.

وبعضهم كان يزور القدس بعائلته كلها التماس البركة المكانية المقررة شرعًا، واتباعًا للأمر النبوي بشد الرحال كما جرى من الإمام الشهير شيخ الشام ومؤرخها تقي الدين ابن قاضي شهبه الشافعي

<sup>1</sup> متفق عليه واللفظ للبخاري 398/1 حديث 1132، وانظر: صحيح مسلم 126/4 حديث 3450

<sup>2</sup> الطبراني في المعجم الكبير 307/1 ح 907؛ والحاكم في المستدرک بإسناد صحيح 576/3 ح 6130

<sup>3</sup> فضائل بيت المقدس لابن المرجى 243

<sup>4</sup> المجموع شرح المذهب 261/8

<sup>5</sup> رواه ابن المرجى في فضائل بيت المقدس بإسناده 199

<sup>6</sup> المعجم لابن المقرئ ص 50

الذي زار القدس بجميع عياله في رمضان قبل وفاته بشهرين عام 851هـ<sup>7</sup>؛ وكذا فعل القاضي عز الدين أحمد ابن قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن نصر الله الكنانى الحنبلي<sup>8</sup>. وقد أفتى الإمام أحمد بن حنبل لامرأة وابنيها الذين قد بلغا مبلغ الرجال في زيارة بيت المقدس<sup>9</sup>، يقول الإمام أبو بكر المروزي: ورأيت امرأة جاءت إلى أبي عبد الله فقالت: إني أريد أن أخرج إلى بيت المقدس، ومعى ابنان لي، وقد أدركا! قال: حَجَّجْتِ؟ قالت: نعم! قال: فأخرجني! هذا الانتشار والحضور لقضية الزيارة دفع بعض أئمة الفقه للنظر في تبعات ذلك على العمامة لذلك كان الإمام مالك، إمام دار الهجرة يكره المَجِيءَ إلى بَيْتِ المَقْدَسِ حَيْفَةً أَنْ يُنْخَذَ ذَلِكَ سُنَّةً<sup>10</sup>. وقد أحتت الثقافة الشعبية أن تجعل الاهتمام ببيت المقدس قريباً من الاهتمام بزيارة المدينة المنورة، التي حظيت بالاهتمام الأكبر مقارنة بالقدس لكون الجسد النبوي المبارك ثابواً في بقاعها، وقد قرر الإمام تقي الدين السبكي هذه الحقيقة عندما أشار إلى أن بيت المقدس لا يأتيه كثير من الناس، وإن كان مشهوداً له بالفضل، والصلاة فيه مضاعفة، لاهتمام الناس بزيارة المدينة والسلام على رسول الله<sup>11</sup>؛ لذلك عملت هذه الثقافة على ربط بيت المقدس بمرقد أبي الأنبياء إبراهيم – عليه السلام- القريب في ناحية الخليل جنوبي بيت المقدس، لاسيما أن مرقد عيسى الذي يعتقده النصارى في القدس محل رفض تام من المسلمين لاعتقادهم الجازم أنه لم يُقْتَلْ وإنما رُفِعَ إلى السماء؛ هذا الربط جرى من خلال اعتماد نصوص عدة واردة في كتب السنة حتى لو كانت ضعيفة أو منسوبة إلى مُسَلِّمة أهل الكتاب ككعب الأخبار ووهب بن منبه، مستندين إلى أن رسول الله زار إبراهيم الخليل أثناء رحلة الإسراء كما في رواية من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى بَيْتِ المَقْدَسِ، مَرَّ بِي جَبْرِيْلُ إِلَى قَبْرِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيْلِ، فَقَالَ: انزِلْ، صَلِّ هَاهُنَا رَكَعَتَيْنِ! فَإِنْ هَاهُنَا قَبْرُ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ!)<sup>12</sup>؛ وجعلوا زيارة الخليل كزيارة رسول الله في المدينة، وذكروا الحديث المعلوم: (من لم يزُرْ قبري فليزُرْ قبرَ أبي إبراهيم عليه السلام؛ فإنه من زاره فكأنما زارني)<sup>13</sup>؛ ولذلك نرى أن أية رحلة إلى بيت المقدس كان لابد من اختتامها بزيارة إبراهيم الخليل، وجعلوا في ذلك مناسك زيارة خاصة، وأدعية تُتلى<sup>14</sup>.

و قام الشيخ عبد الغني النابلسي برحلتين إلى بيت المقدس، الأولى في جمادى الآخرة في سنة 1101هـ/ آذار 1641م، والمسامة بالرحلة الصغرى. أمّا الرحلة الكبرى فكانت في سنة 1105هـ/1645م، وقد تحدث في كتابه الحضرة الأنسية عن أسباب رحلته إلى بيت المقدس تمثلت بكثرة فضائل بيت المقدس، وطلباً للبركة من تلك المواطن الشريفة، واستجابة لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، ومقابلة الصالحين.

ومصطفى البكري يحفزه للقيام بالرحلة لزيارة بيت المقدس أن " مناره عالٍ غالٍ منيف لا زال محفوراً بأطراف اللطيف"<sup>15</sup> ولذلك زارها خمس مرات، إذ كانت هي محطته الرئيسية في كل رحلة<sup>16</sup>، ويقرر هذه المكانة بقوله: (وخصّه بالتجليات الرحمانية الأنسية، وحقّه بالروحانيات العليا، فما تسير في فيافيهِ إلا وتجد ذلك فيه مغموراً، وجعل منه العروج للمنازل الملكوتية)<sup>17</sup>، فيجلس في أحد شبابيك المسجد الأقصى المطل على جبل المكبر وحديقة الخاتونية، ومعه الأداة والقلم يكتب

7 عيون الزمان 111/2

8 إظهار العصر 202

9 انظر الورع للإمام أحمد بن حنبل برواية المروزي 142

10 الاعتصام 249/2

11 انظر: شفاء السقام ص194 وص266

12 فضائل بيت المقدس لابن المرجى ص 459

13 فضائل بيت المقدس لابن المرجى ص 470

14 انظر مثلاً: اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك لابن جبير 107-110

15 دراسة عن الخمرة الحسية في الرحلة القدسية للدكتور محمد الحزماوي في مجلة معهد المخطوطات العربية ص157 مجلد 48

الجزآن 2و1-2004

16 مجلة معهد المخطوطات العربية ص 155 مجلد 48 الجزآن 2و1 2004

17 مجلة معهد المخطوطات 156

( في وصف المسجد الذي تُشدُّ إليه الرحال، مخاطباً حقيقته، منادماً دقيقته )<sup>18</sup>؛ ويكتب: " للتسلي بما يُجرّيه مُنزلُ النون والقلم... في وصف المسجد الذي تشدُّ إليه الرحال مخاطباً حقيقته منادماً دقيقته " <sup>19</sup>.

وقد حكى السبكي عن بعض من وصفهم بالفضلاء أن كون سفر الزيارة لهذه المواضع الشريفة قُرْبَةً معلومة من الدين بالضرورة، وجاحده محكوم عليه بالكفر<sup>20</sup>.

وقد جعل بعضهم لزيارة بيت المقدس مناسك وأدلة يعينون بها طلاب الزيارة في أداء منسكهم هذا، ومعظم كتب الفضائل المتأخرة تحوي أبواباً في ذلك، وبعضهم أفرد ذلك بمؤلف ومن أحدث ما كُتِبَ هو كتاب "مناسك القدس الشريف" ليحيى عمر الدنف، فيبتدئ الزائر من باب حطّة في الجهة الشمالية ليكون مستقبل القبلة، ويصلي هناك ركعتين كما يزعمون، ويقرأ دعاءً مأثوراً عن أحد الصالحين، ثم يتجه إلى باب شرف الأنبياء الذي يقال إن الخليفة عمر بن الخطاب دخل منه يوم الفتح، ويتجه إلى قبة سليمان، ثم يستمر في رحلة دقيقة حتى يتمّ زيارة كافة أركان المسجد وأسواره، وفي كلّ دعاء مشهور يعلمه أصحاب هذه المناسك، ثم يجولون في مواضع الزيارة خارج السور ولاسيما قبور الصحابة والتابعين .

### المجاورة:

ويأتي العُبادُ العاشقون للجوار في بيوت الله المعظمة، وأكثر ما يكون الجوار في بيت الله المحرم بمكة، ثم في مسجد رسول الله بالمدينة، ويأتي الجوار في المسجد الأقصى في المرتبة الثالثة بعد هذين المسجدين، ويكن الجوار لعالم أو متعلم أو مجاهد أو طالب رزق أو عائد من حج، وهو إما أن يكون جواراً دائماً يستقر فيه المرء حتى الممات، أو جواراً مؤقتاً لشحن النفس ثم استئناف الحياة في محطات مباركة أخرى.

وكانت المجاورة في المسجد الأقصى قديمة في صدر الإسلام، وقد ورد الترغيب النبوي لبعض الصحابة للتوجه صوب بيت المقدس والسكن فيه، بل حرص أن تكثر ذرية هؤلاء الصحابة في بيت المقدس ليعمروا المسجد الأقصى، فعن ذي الأصابع قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ ابْتُلِينَا بَعْدَكَ بِالْبَقَاءِ أَيْنَ تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: " عَلَيْكَ بِنَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَلَعَلَّه أَنْ يَنْشَأَ لَكَ ذُرِّيَّةٌ يَغْدُونَ إِلَيَّ ذَلِكَ الْمَسْجِدِ، وَيَرْوَحُونَ<sup>21</sup>؛ وفي رواية أخرى قريبة عن ذي الأصابع أنه قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنْ ابْتُلِينَا بِالْبَقَاءِ بَعْدَكَ فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَقَالَ: عَلَيْكَ بِنَيْتِ الْمَقْدِسِ؛ لَعَلَّه أَنْ يَرْزُقَكَ ذُرِّيَّةٌ تَغْدُو إِلَيْهِ، وَتَرْوَحُ<sup>22</sup>؛ ويعلق عثمان بن عطاء الخراساني الذي روى حديث ذي الأصابع السابق أن ذلك الحديث كان السبب في سكن والده بيت المقدس : ( لذلك نزل أبي عطاءً بيت المقدس)<sup>23</sup>؛ ويستشهد المجاورون بالحديث النبوي: (نعم المسكن بيت المقدس)<sup>24</sup>.

ومن ذلك أيضاً ما حكاه وهب بن جابر الخيواني<sup>25</sup>: شهدت عبد الله بن عمرو في بيت المقدس ، وأتاه مولى له ، فقال : إني أريد أن أقيم هذا الشهر ههنا - يعني رمضان - قال له عبد الله : هل

<sup>18</sup> المصدر نفسه 161

<sup>19</sup> دراسة عن الخمر الحسية، مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد 48 ص 160

<sup>20</sup> شفاء السقام 284

<sup>21</sup> مسند أحمد 190/27 رقم الحديث 16632

<sup>22</sup> المعجم الكبير للطبراني 238/4 رقم الحديث 4237

<sup>23</sup> معجم الصحابة لليغوي 312/2؛ وولد عثمان بن عطاء بن أبي مسلم الخراساني سنة 88 ومات سنة 155 ووفد مع أبيه إلى هشام

بن عبد الملك انظر: تاريخ دمشق 446/38

<sup>24</sup> البلدانيات 67

<sup>25</sup> السنن الكبرى للبيهقي 769/7 ؛ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 143/1

تركت لأهلك ما يقوتهم؟ قال: لا، قال: أما لا فارجع فدع لهم ما يقوتهم، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»؛ فقد دل هذا أن هذا الأجير الذي يعمل لدى الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص الذي كان مقيماً بين القدس ومدن فلسطينية أخرى، قد رغب في الاعتكاف والمجاورة بالمسجد الأقصى دون أهله، وكان اعتراض عبد الله بن عمرو أنه لم يترك لأهله قوتاً كافياً أثناء غيابه للتعبّد.

ولو راجعنا سير الأعلام لرأينا أسماء كثيرة جاورت في المسجد الأقصى، ولاسيما من أهل المغرب العربي والأندلس، وأصبح لبعض الأقاليم مناطق مخصوصة اشتهروا بالجوار فيها، كالمغاربة الذين اعتادوا المجاورة بالبقعة قرب الزاوية الجنوبية الغربية لسور المسجد الأقصى، عند أقرب نفطة للمسجد حتى أوقفها عليهم الملك الأفضل سنة 589هـ/26، وبقيت لهم حتى أزالها الاحتلال اليهودي بعد دخوله القدس عام 1967.

ومن الفتاوى المأثورة في ذلك أن أحدهم استفتى الشيخ محمداً ابن شرف الخليلي المتوفى عام 1147هـ في رواقٍ داخلٍ في حدود المسجد الأقصى الشامل له قوله تعالى {إلى المسجد الأقصى}، وأنه جاء بعض صلحاء المغاربة، وبنى له ستارة من جهة الشرق، وستارة من جهة الشمال، يجلس به أهل العلم وأهل القرآن والصلحاء والفقراء والمساكين... فهل لأحد أن يقطع استحقاق أحد من المجاورين أو يمنعهم من المبيت والقراءة به أو لا؟ فأجابه الشيخ الخليلي الشافعي أنه: (مما اختص به المسجد الأقصى من الفضائل أن الله تعالى سماه مسجداً في كتابه العزيز، وقال تعالى {وأن المساجد لله}، وقال: {إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر} وعمارة المساجد بالذكر والقراءة والعبادة والصلاة والاعتكاف، فليس لأحد من خلق الله تعالى أيا كان - متولياً أو ناظراً أو غيرهما - أن يمنع أحداً أن يجاور في هذا الرواق الداخل في عموم المسجد الأقصى، فإن منع أحد أحداً مستحقاً من الجلوس أو القراءة أو الصلاة أو غير ذلك في هذا الرواق، كان المانع داخلاً في عموم قوله تعالى {ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم} لأن مطلق المساجد الداخل في عمومها هذا الرواق بل أولى بالاتفاق، لا يجوز المنع منه ولا المعارضة، فكيف هذه المنصوص عليه في الكتاب العزيز؟ (...)<sup>27</sup>.

ومن النصوص اللافتة في هذا الشأن ذلك الشرح الذي قدّمه الرحالة البلوي المغربي الفاسي للمشاعر التي سيطرت عليه قبل أن يعتزم المجاورة ببيت المقدس، وكان قد زار القدس عام 737هـ<sup>28</sup>: (ولما لاحت نيران هذه الأنوار، وفاحت نسيمات تلك الأسحار، وشاهدت أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد إليها إلا الرحال، وعابنت الحرم الشريف حقيقة قد أحلني لديه الترحال، اخترت مجاورته، وأثرت ملازمته، وقلت: أين أذهب عن موطن مهبط الرحمة، وموضع محشر الأمة، ومحل تفرج الكربة والغمة).

وأصبحت المجاورة شرفاً وقربةً يحمد فيها المجاور ربّه على نعمته، ويوقع فيها عريضته المسطورة بروائع البيان والبلاغة، كما في توقيع القاضي جمال الدين ابن جماعة بنصف خطابة القدس الشريف شريكاً لابن القلقشندي وهو<sup>29</sup>: (الحمد لله الذي أبرز علماء هذه الأمة في حُلّ الجمال، وأسرى بهم إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله فكان لهم نعم المأل، وقدس أسرارهم بالأرض المقدسة فما منهم إلا من حسن مثواه، وأيد مشايخ الإسلام بشيخهم الذي أيده الله؛ نحمده

<sup>26</sup> أوقاف المغاربة في القدس 12-13

<sup>27</sup> فتاوى الخليلي 256/1

<sup>28</sup> تاج المفرق في تحلية علماء المشرق

<sup>29</sup> قهوة الإنشاء 38

حمد من رغب في المهاجرة إلى حرمة المقدس، ففتح له باب الرحمة، ونشكره شكراً يقرب الأقصى إلى من وقر في قبول الزيارة قسمه).

## القدس والحج !

في هذا الزمان الذي حُرِّمنا فيه من شد الرحال إلى المسجد الأقصى منذ دهر طال، غابت عنا تقاليد وعادات ارتبطت بالمكان منها ما هو حسن صالح، ومنها ما هو تقليدٌ مُشْتَبِهٌ؛ كانت كلها تتجه إلى ربط المسجد الأقصى بالمسجد الحرام بكل عبادة ممكنة، وبكل خيط حبٍ ولو كان قصيراً أو متوهماً؛ ليكون المسجد الأقصى مهوى أفئدة المؤمنين كما المسجد الحرام الذي حظي بدعاء إبراهيم الخليل – عليه السلام- ( واجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم )، فشخصية خليل الله إبراهيم تجمع بين المسجدين، حتى إن طائفة من علماء المسلمين جعلوا الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل كما هو عند الجمهور، وأن الموضع الذي كان مُعداً للذبيح هو صخرة الأقصى30، وعند بعضهم أن موضع الجمرة الوسطى في منى هو موضع ذبح الذبيح في مكة31؛ ولذلك لم يكن غريباً أن يقول الشيخ عبد الغني النابلسي الحنفي: ( السفر إلى بيت المقدس بريدُ الحج إلى البيت الشريف )32.

ووجدنا بعض مصنفات الحج تخصص جزءاً منها لبيان فضل بيت المقدس؛ وشاع الإحرام بالحج أو العمرة من بيت المقدس حتى ذكروا عن أبي شعيب صالح بن يوسف المقنع الواسطي المتوفى بالرملة سنة 282هـ أنه حج تسعين حجة راجلاً، بكل حجة منها يخرج مُحرماً من صخرة بيت المقدس33.

ونجد أبا داود في سننه بعد أن يورد حديث أم المؤمنين أم سلمة: ( أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ أَهَلَ بِحَجَّةٍ أَوْ عُمْرَةٍ مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، أَوْ وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ )، يقول أبو داود: " يرحم الله وكيعاً أحرم من بيت المقدس "34، وكأنه يغبطه على أداء تلك السنة، أو أن أبا داود يتحسّر على عدم زيارة هذا المكان المقدس؛ وأورد بعضهم أحاديث ترغّب في ذلك ومنه الحديث: ( مَنْ حَجَّ حِجَّةَ الْإِسْلَامِ، وَزَارَ قَبْرِي، وَغَزَا غَزْوَةَ، وَصَلَّى عَلَيَّ فِي بَيْتِ الْمَقْدَسِ، لَمْ يَسْأَلْهُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ )35.

وقد وثّق الإمام الحافظ المرابط على ثغر ساحل قيسارية فلسطين الحافظ الفريابي زيارتين لإمامين جليلين راسخين أحرمنا من بيت المقدس، أحدهما وكيع والثاني ابن المبارك، يقول الفريابي: ( جاءني وكيع بن الجراح من بيت المقدس وهو مُحرّم بعمرة، فقال: يا أبا محمد ! لم يكن طريقي عليك، ولكن أحببت أن أزورك، وأقيم عندك ! فأقام عندي ليلة ؛ وجاءني ابن المبارك، وقد أحرم بعمرة من بيت المقدس، فأقام عندي ثلاثاً، فقلت: يا أبا عبد الرحمن ! أقم عندي عشرة أيام ! قال: لا ! الضيافة ثلاثة أيام )36.

وقد أحرم من بيت المقدس جملة من الصحابة، كسعد بن أبي وقاص37، وعبد الله بن عمر بن الخطاب38 ومعاذ بن جبل39.

30 تفسير الطبري 580/19

31 انظر مسند أحمد 13/5 حديث 2794

32 الحضرة الأنسية 21

33 إتحاف الأخصا 51/2

34 سنن أبي داود 163/3

35 قال السبكي: رواه الحافظ أبو الفتح الأزدي في فوائده، انظر: شفاء السقام 140، وفي حاشية المحقق: ذكره ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان في ترجمة بدر بن عبد الله المصيبي وقال إنه منكر.

36 روضة العقلاء 115/1

37 تاريخ الطبري 111/3 ؛ تاريخ دمشق 37/45

38 السنن الكبرى للبيهقي 30/5 رقم الحديث 8709، فضائل بيت المقدس لابن المرجى 212 ؛ الثقات لابن حبان 297/2

39 الأم للشافعي 195 /2 ؛ فضائل بيت المقدس لابن المرجى 212

ومن مظاهر التعظيم أن يدخل الخليفة الفاتح باب المسجد الأقصى، ويفتح دخوله بالتلبية إذ هو مسجد عظيم الشأن كالبيت الحرام يحيى بالتلبية، وهو أمر لم أجده منصوصاً عليه في كتب الفقه رغم ورود النصوص بشأنه ربما بسبب اعتلالها على منهج المحدثين وضباط الأحكام الفقهية، فقد ورد أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لما دخل بيت المقدس قال: لبيك اللهم لبيك<sup>40</sup>. وقد وجدنا أيضاً أن مشهد عرفة في موسم الحج قد انتقل صورياً إلى القدس لأسباب سياسية في مرحلة من مراحل الفتن السياسية ثم بات ثقافة شعبية لمن لا يستطيع الحج من الشاميين<sup>41</sup>، وقد شرح في كتابي "مدينة بيت المقدس في القرن الإسلامي الأول" تداعيات الأمر وبداياته، ومما كتبه هنا أنني أرجح أن أنصار عبد الملك وعمامة الشاميين كانوا يحتشدون عشية يوم عرفة في المسجد الأقصى يذكرون الله، ويدعون، في الوقت الذي يقف فيه الحجاج في عرفة، حزناً على ما فاتهم من أداء الحج بسبب ظروف الحرب بين الأمويين الذين في الشام والزيبريين الذين يسيطرون على مكة؛ وتعويضاً عن ذلك فإنهم يقفون في منطقة مباركة مقدسة تشترك في قدسيتها مع مكة المكرمة؛ ومما يرجح هذا الرأي ما ذكره المؤرخون أن أول من سنّ التعريف في المسجد الأقصى هو عبد الملك بن مروان، لما رأى من غضب الناس من منعهم من الحج<sup>42</sup>؛ وأرجح أن السبب الحقيقي لهذا التجمع هو إرادة شعبية جمعت الناس في المسجد الأقصى، غضباً من منعهم من أداء الحج، واحتجاجاً على الحرب الأهلية والنزاع الطويل على السلطة بين الأمويين والزيبريين والتي أدت إلى انتهاك حرمة الكعبة وتعطيل فريضة الحج<sup>43</sup>، وقد استغل الخليفة عبد الملك هذه العواطف الحانقة وأدارها بطريقة هادئة لزم من يسير، إذ إن الأمور حُسمت لصالحه بعد مدة قصيرة من توليه الخلافة عقب أبيه، ولكن اجتماع الناس الذين لا يستطيعون أداء مناسك الحج في يوم عرفة استمر في المسجد الأقصى وفي مساجد الأمصار في العراق ومصر؛ ثم شاع التعريف عشية عرفة بالأمصار كافة، حيث إنهم يجتمعون آخر النهار في المساجد على الذكر والدعاء حتى غروب الشمس تشبهاً بأهل عرفة؛ حتى إن هذه القضية شغلت الفقهاء منذ القديم بين كاره لها بوصفها من البدع المحدثّة غير المأثورة، وبين مبيح لها باعتبارها اجتماعاً على الذكر والدعاء، أي أنّ لها أصلاً تتبني عليه<sup>44</sup>، وبالغ بعضهم فلم يكتف بإباحة الوقوف بل قال إنه مثاب عليه، دون أن يجزئه ذلك عن الحج المشروع<sup>45</sup>.

وكان عبد الملك يعتمد على ثقافة شعبية تميل بقلبها المُحبّ للمسجد الأقصى كما يقول الرحالة البشاري المقدسي: ويميل "إليها قلب كل لبيب"<sup>46</sup>، مما ساعد عبد الملك على تقديم إنجازه هذا كإضافة دينية، ومما أستاذس به مما يشير إلى رغبة الناس في زيارة المسجد الأقصى وبيت المقدس، وتعظيمهم لهذا الموضع المبارك، وميل الناس إلى اعتباره مكاناً مقدساً قريب من قداسة بيت الله الحرام في مكة المكرمة ما روي في الأخبار أن قوماً خرجوا على هيئة الحاج إلى زيارة بيت المقدس، فردّهم عمر، وضربهم بالدرّة، وقال لهم: أتريدون أن تجعلوا بيت المقدس كالمسجد الحرام؟ وإنما فعل ذلك عمر لما أنهم فعلوا فعلاً مُحدثاً، ولا يجوز لأحد في دار الإسلام أن يشتغل بالمحدثات<sup>47</sup>.

40 المعرفة والتاريخ 365/1، المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية 63/7

41 انظر: سفر نامه 67

42 وفيات الأعيان 72/3، مآثر الإنافة في معالم الخلافة 59/1

43 من ذلك ما رواه الفاكهي عن مجاهد قال: قِيمْتُ مَكَّةَ، فَقَالَ لِي ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: " يَا مُجَاهِدُ ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ النَّاسَ قَدْ رَجَعُوا كَفَّارًا ؟ " قَالَ: قُلْتُ: مَاذَا ؟ قَالَ: " عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبِيرِ وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ يَضْرِبُ بَعْضُهُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ". أخبار مكة للفاكهي 351/2 رقم الخبر 1668

44 انظر تفاصيل الخلاف في هذه المسألة في الموسوعة الفقهية الكويتية 335/45 ومن القائلين بالإباحة الإمام أحمد بن حنبل. وللبيان والتوسع في مسألة التعريف في المسجد الأقصى فانظر ما كتبه الرحالة ناصر خسرو في رحلته "سفر نامه" ص 67 حيث حكى عنها قبيل سقوط بيت المقدس بيد الفرنجة الصليبيين: " ويذهب إلى القدس في موسم الحج من لا يستطيع الذهاب إلى مكة من أهل هذه الولايات فيتوجه إلى الموقف ويضحي ضحية العيد كما هي العادة ويحضر هناك لتأدية السنة وفي بعض السنين أكثر من عشرين ألف شخص في أوائل ذي الحجة ومعهم أبناؤهم "

45 انظر: المدخل لابن الحاج 228/2

46 أحسن التقاسيم 167

47 نصاب الاحتساب 229 ومؤلف نصاب الاحتساب من المتأخرين جداً ولم أجد لنقله هذا الخبر مصدراً قديماً.

وينقل ابن تيمية جانباً ملفتاً فيما فعله عبد الملك وهو الإبهار بتصميم هذه التحفة المعمارية وبنائها لإشغال الناس عن قصد ابن الزبير ؛ يقول ابن تيمية: " لما كان في زمن عبد الملك وجرى بينه وبين ابن الزبير من الفتنة ما جرى، كان هو الذي بنى القبة على الصخرة، وقد قيل إن الناس كانوا يقصدون الحج، فيجتمعون بابن الزبير، أو يقصدونه بحجة الحج، فعظم عبد الملك شأن الصخرة بما بناه عليها، وجعل عليها من الكسوة في الشتاء والصيف، ليكثر قصد الناس للبيت المقدس فيشتغلوا بذلك عن قصد ابن الزبير، والناس على دين الملوك، وظهر من ذلك الوقت من تعظيم الصخرة وبيت المقدس ما لم يكن المسلمون يعرفونه بمثل هذا، وصار بعض الناس ينقل الإسرائيليات في تعظيمها... "48.

ونتيجة لذلك، وجرى على عادة المجتمعات في المبالغة بما يتعلق بالمحوبات فقد شاع تقديس الحج أي زيارة القدس بعد الانتهاء من فريضة الحج، وأصبح ذلك من الطقوس الشعبية المتمكنة في نفوس العامة، وقد حرص عليه المغاربة والأفارقة جداً لاسيما أن رحلة حجهم طويلة، وغالباً ما تكون بحراً ؛ ولعل من أسباب انتشارها أن بعضهم ينقطع للجهاد أو الرباط في فلسطين زمان الحملات الصليبية آخذين بحديث أبي أمامة الباهلي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ حَجَّ، واعتَمِرَ وصلى ببيت المقدس، ثم جاهد، فقد استكمل جميع سنتي) 49.

وبالغ الناس في الأمر حتى اعترض على ذلك أبو بكر الطرطوشي المالكي لما رأى خروج الأمر عن وجهه المشروع: ( وقد كنتُ ببيت المقدس، فإذا يوم عرفة؛ حُبس أهل السواد وكثيرٌ من أهل البلد، فيقفون في المسجد مستقبِلين القبلة مرتفعة أصواتهم كأنه موطن عرفة! وكنت أسمع هناك سماعاً فاشياً منهم: أن من وقف ببيت المقدس أربع وقفات فإنها تعدل حجة ! ثم يجعلونه ذريعة إلى إسقاط فريضة الحج إلى بيت الله الحرام ! ) 50.

وقد انتقد النووي المتوفى عام 676هـ ما شاع عند العامة في الشام من قول بعضهم إذا حجَّ وقَدَّسَ حجتين، فيذهب فيزور بيت المقدس، ويرى ذلك من تمام الحج، يقول النووي: ( وَهَذَا بَاطِلٌ، وَزِيَارَةُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ فَضِيلَةٌ وَسُنَّةٌ لَا شَكَّ فِيهَا، لَكِنَّهَا غَيْرُ مُتَعَلِّقَةٍ بِالْحَجِّ ) 51.

وقد أشار شيخ المالكية الشهير خليل بن إسحاق المالكي الأندلسي المتوفى 776هـ، إلى عادة تقديس الحج بزيارة بيت المقدس، واعترض على من جعله من تمام الحج، وذكر أن زيارة المسجد الأقصى مستحبة وهي غير متعلقة بالحج 52.

ومن هذه الأمور مما سمعناه من أجدادنا فقالوا: إن بعض أهلنا في فلسطين ممن تعذر عليهم الحج، يتجمعون خلال أيام الحج في القدس، ويقفون في بعض ساحات المسجد الأقصى طوال الليل ليلة وقوف الحج بعرفة، يدعون بأصوات مرتفعة كما لو كانوا في عرفات، وأن الناس كانت تذبج أضحية العيد في ساحة المسجد الأقصى كما لو كانوا في منى، وأن الناس كانت تقبل الصخرة كما لو كانت الحجر الأسود.

بل إن هذا الغلو الشعبي في تشبيك صورة مكة بالقدس قد وصل حدوداً دفعت العلماء للاعتراض، ووصف الأمر بالبدعة المحدثه، يقول ابن تيمية الدمشقي: (وكذلك السفر إلى البيت المقدس للتعريف فيه فإن هذا أيضاً ضلال مبين، فإن زيارة بيت المقدس مستحبة مشروعة للصلاة فيه والاعتكاف، وهو أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال لكن قصد إتيانه في أيام الحج هو المكروه فإن ذلك تخصيص وقت معين بزيارة بيت المقدس ولا خصوص لزيارته في هذا الوقت على غيره، ثم فيه أيضاً مضاهاة للحج إلى المسجد الحرام، وتشبيهه له بالكعبة؛ ولهذا قد أفضى إلى ما لا يشك مسلم في أنه شريعة أخرى غير شريعة الإسلام، وهو ما قد يفعله بعض الضلال من الطواف بالصخرة، أو من حلق الرأس هناك، أو من قصد النسك هناك) 53؛ وهذه اللغة القاسية من ابن تيمية – رحمه الله

48 اقتضاء الصراط المستقيم 248/2

49 الثقات 184/4 ؛ مثير الغرام 196 وذكر أنه ضعيف

50 الحوادث والبدع 28

51 المجموع شرح المهذب 261/8

52 منسك خليل 149

53 اقتضاء الصراط المستقيم 149/2

– معروفة عنه، إذ هو يزود هنا عن حدود الدين، ويخشى من تغوّلات الثقافة الشعبية على أصول الشريعة ومبانيها الأولى، وقد وافقه عليها جملة كبيرة من الفقهاء ولم أجد من خالفه فيها<sup>54</sup>.

ومن الطريف أن لفظ "التقديس" هذا مشهور عند المسيحيين عندما يحجون إلى المدينة المقدسة لزيارة "قبر المسيح"؛ فتقول العامة لأحدهم "مُقْدُسي" بضم الميم والذال<sup>55</sup>.

ومع اعتراضات العلماء على هذه الظواهر فإنها بقيت راسخة عند العامة، لاسيما أن طائفة من الصوفية قد جعلوها من شعائر الزيارة الروحانية للأمكنة المقدسة؛ وحتى لا تكون المشابهة كاملة فقد أدخلوا بعض التغييرات في الطقوس حتى لا تشتهب على العبادة الأصلية بظنهم كالطواف حول الصخرة من اليمين إلى اليسار بعكس الطواف حول البيت، ويجعلون للطواف اسم الدوران، ثم يُضفون الكثير من حواشي الجمال على المعالم الأثرية في المسجد الأقصى؛ يقول النابلسي: ( فأول ما زرنا الصخرة الشريفة ذات الأنوار الواضحة، ورأينا أمراً عظيماً على أسلوب هائل، وهيكلاً مباركاً يحوي أنواع الفضائل، وهي الصخرة العظيمة والدرة اليتيمة، فدرنا حولها والتسمنا فضلها وطولها، ودعونا الله تعالى عن رؤيتها بما تيسر من الأدعية المقبولة والتوسلات المطلوبة المأمولة)<sup>56</sup>؛ والناظر لمسجد قبة الصخرة، وهندسة بنائه الأموية سيرى بوضوح أن المسارات الضيقة حول الصخرة لم تصمّم أبداً للطواف حولها، وأن ذلك من ابتداعات المتأخرين؛ ثم يجعل النابلسي الصخرة معلقة في السماء لتكون أكثر عمقاً وأشدّ خيالاً وتحفيزاً للوجدان: ( وهي الصخرة معلقة بين السماء والأرض، ممسوكة بقدرة الله تعالى الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض، ولو لم تكن معلقة بين السماء والأرض لم تكن آية. فكونها آية دالة على أنه تعالى كذلك يمسك نبيه صلى الله عليه وسلم في عروجه من الأرض إلى السماوات فيطمئن قلبه برؤية هذا الصخر الهائل العظيم الممسوك بقدرة الله تعالى)<sup>57</sup>؛ ويعلق شهاب الدين المقدسي: ( والمشهور عند الناس من أن الصخرة معلقة بين السماء والأرض، وحكي أنها استمرت على ذلك حتى دخلت تحتها حامل، فلما توسطت تحتها خافت، فأسقطت حملها، فبني تحتها هذا البناء المستدير حتى استتر أمرها عن أعين الناس)<sup>58</sup>.

بل إن النابلسي يجعل رؤية الصخرة المعلقة هو مقصود آية "النرية من آياتنا" ليكون في رؤيتها طمأنينة قلب رسول الله برؤية هذا الصخر العظيم الممسوك بقدرة الله<sup>59</sup>؛ وأن الفرنج أخفوا ذلك عمداً لمنع ظهور هذه الآية العظيمة<sup>60</sup>؛ وأن الله أخفى أمر هذه الصخرة بهذا البنين حولها، حكمةً منه، ولكن أمرها لا يخفى على أهل البصائر، وأصحاب القلوب الطاهرة والسرائر!<sup>61</sup>.

وقد بلغت هيبة الصخرة واحترامها مبلغاً عظيماً لم أجد أقوى تعبيراً عن ذلك من كلام ابن العربي المالكي الذي جاور في بيت المقدس لأكثر من ثلاث سنوات في الربع الأخير من القرن الخامس الهجري قبيل احتلال الصليبيين لها، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ( وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ ) [المؤمنون:18] يقول: ( قيل إن مياه الأرض كلها تخرج من تحت صخرة بيت المقدس، وهي من عجائب الله في أرضه فإنها صخرة تسعى في وسط المسجد الأقصى مثل الضرب، قد انقطعت عن كل جهة لا يمسكها إلا الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، في أعلاها من جهة الجوف قدم النبي - صلى الله عليه وسلم - حين ركب البراق، وقد مالت من تلك

54 انظر مثلاً: منسك خليل 149

55 محيط المحيط 730 (قدس)، تكملة المعاجم العربية 199/8

56 الحضرة الأنسية 109

57 المصدر السابق 125

58 مثير الغرام 64

59 الحضرة الأنسية 120-121

60 المصدر السابق نفسه 116

61 المصدر السابق 120



الجهة لهيبته، ومن الجهة الأخرى أثر أصابع الملائكة التي أمسكتها إذ مالت به، ومن تحتها الغار الذي انفصلت منه من كل جهة، وعليه باب يفتح للناس للصلاة والاعتكاف والدعاء، تهيئتها مرة أن أدخل تحتها، لأنني كنت أقول أخاف أن تسقط علي بالذنوب ثم رأيت الظلمة والمتجاهرين بالمعاصي يدخلونها، ثم يخرجون عنها سالمين، فهمتُ بدخولها، ثم قلت: ولعلمهم أمهلوا وأعجلوا ! فتوقفت مرة، ثم عزم عليّ، فدخلتُ فرأيت العجب العجيب نمشي في حواشيها من كل جهة فنراها منفصلة عن الأرض لا يتصل بها من الأرض شيء وبعض الجهات أبعد انفصالاً من بعض) 62؛ ويعلق شهاب الدين ابن تميم المقدسي عليه: هذا كلامه وهو عجيب جداً 63.

ويبلغ تعظيم الصخرة عند العامة مبلغاً عظيماً لأخذهم ببعض الأحاديث التي حكى أشياء عنها لم تثبت، ولكنهم قبلوها واعتقدوها، فيذكر الحافظ أبو نعيم الأصفهاني أن الصخرة لانت بيد رسول الله (و) عادت ببيت المقدس ليلة أسري به كهيئة العجيين فربط به دابته البراق) ثم يتابع الأصفهاني شرح موقف الناس من هذا الموضوع الذي تبارك بلمس رسول الله له: (يَلْمِسُهُ النَّاسُ ، إِلَى يَوْمِنَا هَذَا بَاقٍ) 64.

ويضيف بعضهم غموضاً آخر إلى هذا السحر المدعى فيقول إنك لو دخلت المغارة تحت الصخرة، ورفعت السجاد الذي على بلاطها، فستجد بلاطة مستديرة إذا نقرت عليها ترد عليك برنين تجاوبك أصداؤه، وكأنها تقول إن فراغاً هناك ربما يكون مدخلاً لشيء! 65.

وللتابعي الجليل الزاهد خالد بن معدان الكلاعي المتوفى عام 103 هـ قول عجيب متأثر بين محبي القدس - إن صح - في شأن تلك العلاقة الخاصة بين الكعبة والصخرة، كأنني به يفسر فيها حشر الناس إلى الشام، فيسأل عن حال الكعبة في آخر الزمان كيف يكون! فبنى فكرة خيالية جميلة جعل فيها الكعبة عروساً تُرْفُ إلى الصخرة التي هي عروس مثلها فيلتقيان ويتحاوران بأنس بعد وحشة الفراق، يقول: (إِنَّ الْكَعْبَةَ تُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ تُرْفُ زَفَّ الْعُرُوسِ، مُتَعَلِّقٌ بِهَا مَنْ حَجَّ إِلَيْهَا، فَتَقُولُ الصَّخْرَةُ: مَرْحَبًا بِالزَّائِرِ وَالْمُرُورِ) 66.

ومن عجيب تأملات ابن شيث القرشي في هذه المسألة قوله: (وقد بينا أن بين هذين البيتين: "المسجد الحرام والمسجد الأقصى" علاقة روحية فإن الله تعالى يقول: "ومن كل شيء خلقنا زوجين" فافتضى هذا أن يكونا بيتين كما كانا، وهذا أيضاً سرٌ دقيق، فهما مشتركان أيضاً في الطهر... ) 67، وكأنه بذلك يقدم تأويلاً لحديث أبي نر لما سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم- عن أول مسجد وُضِعَ في الأرض؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً 68.

وكون الكعبة أول بيت وضع لطاعات الناس وعباداتهم أن مسجد بيت المقدس الذي هو ثاني بيت كما في حديث أبي نر يشاركه في كونه موضوعات لهذه الطاعات والعبادات، ولا يلزم أن يكون له مشاركاً في جميع العبادات كوجوب الحج إليه مثلاً لورود النص على الحج إلى المسجد الحرام فحسب 69، مما يدل على شراكة قديمة بين المسجدين المتباعدين في الجغرافية في مجال التعبّد بهما، وقد شرحتُ بتفصيلٍ ضافٍ في كتابي "البركة: مقوماتها ومنازلها بين مكة وبيت المقدس" سرّ هذه الشراكة على أساس أنهما طرفا شيق البركة التي خلقها الله فيهما. وهذه العلاقة الخاصة ترجمها الشعراء كثيراً ونَبَّهوا لها، يقول فتيان الشاغوري لصلاح الدين عند فتح القدس 70:

62 القيس في شرح موطأ مالك بن أنس 1076/1؛ وذكرها النابلسي في الحضرة الأنسية 114-115

63 مثير الغرام 264

64 دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني 594/1

65 انظر: رسالة قديمة أصدرها المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى في القدس برئاسة الحاج أمين الحسيني ربما صدرت في ثلاثينيات

القرن الماضي بعنوان: "تعريف بالمسجد الأقصى" ص 14

66 أخبار مكة للفاكهي 72/3، فضائل بيت المقدس لابن المرجى 292

67 مفتاح المقاصد 146

68 صحيح البخاري 1231/3 حديث 3186؛ صحيح مسلم 63/2 حديث 1190؛ سنن النسائي 32/2 حديث 690

69 انظر: اللباب في علوم الكتاب 399/5

70 ديوان فتیان الشاغوري 143

فلقد وَأَدَّتْ الشَّرْكَ يَوْمَ لَقِيَتْهُمْ وَغَدَوَتْ لِلْإِسْلَامِ عَيْنَ الْمُنْشَرِّ  
وَأَرِيَتْهُمْ لَمَّا التَّقَى الْجَمْعَانَ بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ هَوْلَ يَوْمِ الْمُحْشَرِّ  
وَرَدَدَتْ دِينَ اللَّهِ بَعْدَ قُطُوبِهِ بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى بُوْجِهِ مَسْفَرٍ  
حَتَّى جَمَعَتْ لِمَعْشَرِ الْإِسْلَامِ بَيْنَ الصَّخْرَةِ الْعَظْمَى وَبَيْنَ الْمَشْعَرِ  
فَلِصَخْرَةِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ كَفُّهَا الْحَجْرُ الْمَفْضَلُ عِنْدَ أَفْضَلِ مَعْشَرٍ  
وَمَا تَزَالُ الرُّوَابِطُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْقُدْسِ حَدِيثَ النَّاسِ وَالشُّعْرَاءِ مِنْ زَمَانٍ " شَدَّ الرَّحَالَ " إِلَى " فَتَوْحِ  
صَلَاحِ الدِّينِ " إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، يَقُولُ الْعَمَادُ الْأَصْفَهَانِيُّ<sup>71</sup>:

أَحْيَا الْهَدْيَ وَأَمَاتَ الشَّرْكَ صَارُمُهُ لَقَدْ تَجَلَّى الْهَدْيُ، وَالشَّرْكَ مُنْجَابُ  
بِفَتْحِهِ، الْقُدْسُ لِلْإِسْلَامِ قَدْ فُتِحَتْ فِي قَمْعِ طَاغِيَةِ الْإِسْرَاكِ أَبْوَابُ  
فَفِي مَوَافِقَةِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ لِلْبَيْتِ الْحَرَامِ لَنَا تِيَّةٌ وَإِعْجَابُ  
وَالصَّخْرُ وَالْحَجْرُ الْمَلْتَوُمُ جَانِبِهِ كِلَاهُمَا لِاعْتِمَارِ الْخَلْقِ مَحْرَابُ  
نَفَى مِنَ الْقُدْسِ صُلْبَانًا كَمَا نُفِيَتْ مِنْ بَيْتِ مَكَّةَ أَرْزَامٌ وَأَنْصَابُ  
وَيَجْعَلُ الشَّاعِرُ الدُّكْتُورُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَارُودَ الْعِلَاقَةَ ثَلَاثِيَّةً<sup>72</sup>:  
وَطَيُّورِ الْمَادَنِ الْبَيْضِ تَشْدُو مَكَّتِي أَخْتُ طَيِّبِي أَخْتُ قُدْسِ  
وَيَقُولُ د. مُحَمَّدُ صِيَامُ خَطِيبُ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَالْقَائِمُ بِأَعْمَالِ رَئِيسِ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَغْزَةَ سَابِقًا  
.<sup>73</sup>

فَالْقُدْسُ مَنَا فِي الْقُلُوبِ كَمَثَلِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ  
وَجَمِيعِ أَرْضِ بِلَادِنَا كَالْقُدْسِ غَالِيَةً ثَمِينَةً

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَإِنَّ رِحْلَةَ الْحَجَّاجِ الْمُقَدَّسِينَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ تَكُنْ فَرْدِيَّةً إِذْ إِنَّ قَوَافِلَ الْحَجِّ كَانَتْ  
تَسِيرُ بِالرُّكْبَانِ فِي جَمَاعَاتٍ، وَلَمْ تَكُنْ الْقَافِلَةَ لِتُحْتَرَفَ عَنِ الطَّرِيقِ مِنْ أَجْلِ رَاكِبٍ أَوْ اثْنَيْنِ، فَلَا بَدَّ  
أَنْ ثَمَّةَ قَصْدًا مَبَاشِرًا لِلزِّيَارَةِ، وَغَالِبًا مَا يَكُونُ الْقَصْدُ مِنْ عَائِلَةٍ وَاحِدَةٍ، أَوْ جَمَاعَةٍ مِنْ مَنَاطِقِ جُغْرَافِيَّةٍ  
وَاحِدَةٍ، فَلِذَلِكَ نَجِدُ أَنَّ هَؤُلَاءِ اسْتَطَاعُوا تَشْكِيلَ حُضُورِ اجْتِمَاعِي لَدَى انْعِقَادِ النِّيَّةِ لَدَيْهِمْ عَلَى الْبَقَاءِ  
فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، مِمَّا جَعَلَ هَذَا الْأَمْرَ سَبَبًا فِي اسْتِقْرَارِ مَجْمُوعَاتٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْحَجَّاجِ فِي الْمَدِينَةِ  
الْمَقْدِسَةِ عِبْرَ الْقُرُونِ.

### الخاتمة في القدس !

لَا يَجِدُ الْمُؤْمِنُ نَفْسَهُ إِلَّا فِي مَكَانٍ يَمْتَلِئُ بِالْقُدْسِيَّةِ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْتَمِي إِلَى الْمَعَانِي وَالْجَوَاهِرِ، وَيَفِيضُ  
بِاعْتِقَادِهِ الْمَعْنَوِيِّ عَلَى الْمَحِيطِ بِهِ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ الْمُؤْمِنَ يَحِبُّ اخْتِنَامَ حَيَاتِهِ بِالْمَوَاضِعِ الَّتِي يَجِدُ فِيهَا  
رَاحَتَهُ وَأُسْنَهُ وَنَفْسَهُ وَمَعْنَاهُ، وَيَعِدُّ ذَلِكَ مَدْخَلًا مِنْ مَدَاخِلِ الْبِرْزَخِ الْمُوَصِّلِ إِلَى الْآخِرَةِ.  
وَتَجِدُ أَثَرَ أَحَادِيثِ الْمَوْتِ فِي الْقُدْسِ كَبِيرًا فِي نَفُوسِ الْعَامَّةِ رَغْمَ أَنَّهَا ضَعِيفَةٌ جَدًّا، أَوْ تَكَادُ تَكُونُ  
مَوْضُوعَةً، وَذَلِكَ عَلَى الْقَوْلِ الْمَتَسَاهِلِ بِأَلَّا يَنْتَشِدُ النَّاسُ فِي قَبُولِ أَحَادِيثِ الْفَضَائِلِ مَا دَامَتْ لَا  
تَخَالِفُ نَصًّا شَرْعِيًّا صَرِيحًا، وَكَثِيرٌ مِنْهَا مِنْ إِسْرَائِيلِيَّاتِ كَعَبِ الْأَحْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مَنْبِهِ كَقَوْلِهِمْ ( مَنْ  
مَاتَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَكَأَنَّمَا مَاتَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا )<sup>74</sup>، وَقَوْلِهِمْ: ( مَنْ دُفِنَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَقَدْ  
جَازَ الصَّرَاطَ )<sup>75</sup>، وَقَوْلِهِمْ: ( مَقْبُورُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَا يُعَذَّبُ )<sup>76</sup>، بَلْ امْتَدَّ الْأَمْرُ إِلَى أَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ

<sup>71</sup> عيون الروضتين 364/3

<sup>72</sup> الأعمال الكاملة، قصيدة أمّتي ص 146

<sup>73</sup> ملحمة الانتفاضة ص 156

<sup>74</sup> مسند البزار 239/16 قال الهيثمي في مجمع الزوائد: به يوسف بن عطية البصري وهو ضعيف؛ فضائل بيت المقدس لابن المرجى

274؛ وهو مرفوع إلى النبي كما قال في مثير الغرام 247 وقال: فيه محمد بن يونس الكديمي وهو متهم بالوضع؛ وجزء فيه حديث

المصيصي لوين 92، قال لوين: ليس يعني بيت المقدس نفسه إنما يعني الموضع الذي فيه بيت المقدس.

<sup>75</sup> فضائل بيت المقدس لابن المرجى 273

<sup>76</sup> فضائل بيت المقدس لابن المرجى 273

ومحيطها: ( من مات ببيت المقدس وما حولها باثني عشر ميلاً كان بمنزلة من قبض في السماء الدنيا )<sup>77</sup> ؛ ومن المأثور عن أمين هذه الأمة قائد أجناد الشام أبي عبيدة ابن الجراح عندما أصاب الطاعون الشام أنه أوصى بأن يدفنه من غربي نهر الأردن إلى الأرض المقدسة، ثم قال مستدرِكاً على اجتهاده هذا رغم ما أبداه من حبٍ للدفن في الأرض المقدسة: ادفنوني حيث قضيتُ، فإني أتخوَّف أن تكون سنَّة<sup>78</sup>؛ فبات كثيرون يختمون حياتهم فيها، راجين أن يبعثهم الله منها، إذ هي أرض بركة وقدسية، وهذه الرغبة في الحقيقة إنما هي استدعاءٌ للخلود، وأن الموت إنما هو انتقال من حياة إلى أخرى، وأن ذلك الانتقال يكون سريعاً وطيباً عندما يكون في محطة انتقال سريعة مجرّبة.

ويستدل بعضهم على فضل ذلك بما رجاه سيدنا موسى - عليه السلام - من ربه أن يقربه من الأرض المقدسة عندما حان أجله الأخير، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: " أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَلَمَّا جَاءَهُ صَنَعَهُ، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: أُرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ عَيْنَهُ وَقَالَ: ارْجِعْ، فَقُلْ لَهُ: يَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَنْ تَوَرَّأَ فَلَهُ بِكُلِّ مَا غَطَّتْ بِهِ يَدَهُ بِكُلِّ سَعْرَةٍ سَنَّةٌ، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، ثُمَّ مَادَا؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ، قَالَ: فَالآنَ، فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمِيَةً بِحَجْرٍ "، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلَوْ كُنْتُ ثُمَّ لَأُرْبِتُكُمْ قَبْرَهُ، إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ، عِنْدَ الْكَيْبِ الْأَحْمَرِ»<sup>79</sup>

وعندما يموت التابعي الجليل عطاء الخراساني بأريحا، فإنهم لا يدفنونه حيث قضى، بل يحملون نعشه إلى بيت المقدس ليدفنه هناك<sup>80</sup>؛ ويظهر هذا التعلُّق بالقدس بانكشاف ووضوح عندما يختار بعض الملوك والسلاطين والأمراء والوجهاء مكان دفنهم في القدس، وتجري الوصية بذلك، وهذا ما كان من السلاطين الإخشيديين، إذ كانت وصيتهم أن يدفنوا في جوار المسجد الأقصى، وهو ما كان لهم.

فمنهم أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية المتوفى سنة 334 هـ بدمشق، فحمل تابوته إلى بيت المقدس فدفن به<sup>81</sup>؛ وابنه أبو القاسم أنوجور المتوفى سنة 349 هـ حيث حُمل إلى القدس ودفن عند أبيه<sup>82</sup>؛ وأخوه أبو الحسن علي بن الإخشيد المتوفى سنة 355 هـ وعمره يومئذ ثمان وعشرون سنة ونصف، فقد حُمل أيضاً في تابوت إلى بيت المقدس، ودفن مع أخيه ووالده بباب الأسباط<sup>83</sup>.

يقول ناصر خسرو واصفاً آثار تلك الثقافة الشعبية في القرن الخامس الهجري: ( وبعد الجامع سهل كبير مستو يسمى الساهرة، يقال إنه سيكون ساحة القيامة والحشر، ولهذا يحضر إليه خلق كثيرون من أطراف العالم، ويقيمون به حتى يموتوا فإذا جاء وعد الله كانوا بأرض الميعاد )<sup>84</sup>، وكأنهم يُثبتون لربهم أنهم آمنوا بما أخبر به أنبياءه، فجاؤوا إليه حيث يُحشر الناس للحساب في منتهى الرحلة، فيكونون أول المتوسلين لربهم، فيكون ذلك أدعى للرحمة بهم !.

وبعضهم عرف الناس قدره ومكانته وكرامته عند ربه يوم ارتحل إلى القدس، وأخبر أهله لدى وداعه لهم أنه سيختم حياته هناك، وأنه ذاهب لهذا الغرض خاصّة، وأخذ كفته معه، وهو ما كان من والد القاضي الشهير بدر الدين ابن جماعة، وهو الشيخ إبراهيم بن سعد بن جماعة الحموي، المتوفى عام 675 هـ<sup>85</sup>.

وقريبٌ من ذلك ما ذكره أبو المعالي عبد الصمد بن هبة الله بن أبي جرادة - وكان قد حج سنة إحدى وستمئة - عن الشيخ أبي الفضل ربيع بن محمود بن هبة الله المارديني، قال: ( لَمَّا وَصَلْتُ مَكَةَ -

77 مسند الفردوس 505/3

78 تاريخ دمشق 486/25، سير أعلام النبلاء 23/1، أسد الغابة 127/3، فضائل بيت المقدس لابن المرجى 258

79 صحيح البخاري 449/1 حديث 1274 ؛ صحيح مسلم 99/7 حديث 6297

80 فضائل بيت المقدس لابن المرجى 275

81 وفيات الأعيان 59/5

82 وفيات الأعيان 99/4

83 الولاة وكتاب القضاة 214

84 سفر نامه 68

85 طبقات الشافعية الكبرى 115/8 ؛ المنهل الصافي 64/1؛ والكوكب الدرية 333/2

حرسها الله- وجدتُ الشيخ ربيع في أواخر مرضٍ أشقى فيه على الموت أيس منه أصحابه، فرأهم منزعين بسببه، وبكوا حوله، فقال لهم: لا تشغلوا قلوبكم فإني لا أموت إلا في البيت المقدس، فلما قضينا حجنا، وكنت قد حججت على العراق، عرضت على الشيخ ربيع أن أحمله إلى الشام، وعدت على طريق أيلة، وكان أكثر رغبتني في العود على طريق أيلة صحبة الشيخ ربيع، فصحبته وأصابه الذرب وقوي عليه في الطريق، وجئت إلى عقبة أيلة وهي عقبة مشقة لا يركب فيها أحد فلم يمكن الشيخ ربيع النزول وصعد ركباً على الجمل والجمل الذي تحته في العقبة يصعد به كأنه يمشي في أرض سهلة، قال: ووصلنا إلى قبر الخليل عليه السلام وزرناه، ووصلنا إلى البيت المقدس واشتد به المرض وفارقته منه، فلما وصلت دمشق وصلني خبر وفاته، أنه توفي بالبيت المقدس في أواخر صفر أو أوائل شهر ربيع من سنة اثنتين وستمئة).

ومن المسائل العلمية في هذا الباب ما ورد في حكاية الخلاف بين الصحابة حول مكان دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم هل في مكة أم المدينة أم القدس؟ يقول الشهرستاني: (وأرادت جماعة نقله إلى بيت المقدس لأنه موضع دفن الأنبياء ومنه معراجه إلى السماء)86.

ومن يبذل للقدس، ويخدم مقامها، يكون من أبنائها ولو كان من غير ساكنيها، يستحق أن يحظى بلقائها، وأن يضم جسده ترابها، إذ القدس عالمية الاهتمام، محيطية المدار، إذ هي سيدة القرى، كما يقول أحمد شوقي في رثاء زعيم الهند الشاعر والصحفي مولانا محمد علي جوهر رائد حركة الخلافة الذي تعلّق قلبه بالقدس لدى زيارته لها مع وفود المؤتمر الإسلامي، وقبل ذلك باستقباله زعماءها في الهند، فأوصى أن يدفن فيها، وهو الأمر الذي صدقه مفتي القدس بالموافقة، فنقلوا جثمانه من لندن إلى القدس عام 1931م في محطات حشود مهيبه، وما زال جسده يرقد في ساحات المسجد الأقصى<sup>87</sup>:

بيتٌ على أرض الهدى وسمائه الحق حائطه وأسّ بنائه  
الفتح من أعلامه والطهر من أوصافه والقدس من أسمائه  
نمّ في جوار الله ما بكّ غربةً في ظل بيتٍ أنت من أبنائه  
أفتى بدفنك عند سيدة القرى مُفتٍ أراد الله من إفتائه  
بلدٌ بنوه الأكرمون قصورهم وقبورهم وقفٌ على نزلائه  
قد عشتَ تنصره وتمنح أهله عوناً فكيف تكون من غربائه

86 الملل والنحل 31/1 ؛ وقد ذكر ذلك ابن العربي المالكي أيضاً في قانون التأويل 484/1 وفي أحكام القرآن 415/2، قال: واختلف الناس أين يدفن؟ فقال قوم: يدفن بالبيعة، وقال قوم: بمكة، وقال قوم: ببيت المقدس إذا فتحت يحمل إليها. فقال لهم أبو بكر: سمعته - صلى الله عليه وسلم - يقول: "مَا دُونَ قَطْنِي إِلَّا حَيْثُ مَاتَ" وأشار ابن العربي إلى أن الإمام مالكاً رواه في الموطأ بلاغاً، وقد وجدته في بعض روايات الموطأ دون ذكر بيت المقدس، إذ ذكر المنبر والبيعة ومكة، فلربما كانت نسخة ابن العربي من الموطأ قد ورد فيه ذلك.  
87 ديوان أحمد شوقي "الشوقيات" 13/3